المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثامن والستين

١ مارس (آذار) سنة ١٩٢٦ — الموافق ١٦ شعبان سنة ١٣٤٤

اللباس وارتباطه بمصالح الناس

«كل ما شئت والبس ما شئت ما خطتك اثنتان سرف او مخيلة»

ابن عباس

لما نزلنا القطر المصري منذ اربعين سنة لقينا رجلاً وجيهاً كبير السن من اقدم الاسر السورية التي سكنت هذا القطر. ودار الحديث مرة على ازياء الناس في اللباس فذكر لنا السبب الذي حمله على لبس الثياب الافرنجية من سترة وبنطلون بعد ان كان يلبس اللباس البلدي من قفطان وجبة مثل سائر التجار معاصريه. قال «كنت تاجراً في بولاق ولي تجارة واسعة بين مصر والسودان وكان عندي خادم اوربي الاصل يلبس الثياب الافرنجية ويقضي اشغالي في الحكومة. جاءني ذات يوم وقال انهُ تعذَّر عليه قضاء شغل لي في المحافظة ولا بدَّ من ذهابي بنفسي لقضائه. فركبت دابتي وسار معي الى ان وصلنا الى باب المحافظة فترجلت ودخل هو امامي وسرت وراءهُ فمنعني الحاجب من الدخول فاستغربت ذلك وقلت لهُ كيف تمنعني من الدخول وهذا الذي دخل امامي خادمي. وعاد الخادم وحاول اقناعهُ بانني سيدهُ فلم يقتنع بل شتمني بالتركية وهو يقول بالعربية المكسرة هذا خواجه وانت فلاح. فعدت ادراجي واسرعت الى محل ميرس بائع الثياب الافرنجية وجعلت اخلع ثيابي البلدية واقول لهُ هات ما عندك من الثياب»

هذه القصة على بساطتها تبين اهم الاسباب التي تدعو الى تغيير اللباس وهو اما جلب نفع او درء ضرر ماديًّا كان كلٌّ منهما او ادبيًّا

وكاتب هذه السطور واكثر الذين من سنهِ كانوا في صباهم يلبسون الثياب التي

يلبسها ابناء بلدهم في ذلك العصر ولم يغيروا لباسهم عن هوى بل لانهم رأوا في تغييره فائدة فهم مادية او ادبية ولو حاول احد صرفهم عن هذا التغيير لحسبوهُ معتدياً على حق طبيعي وهو طلب النفع من حيث لا يقع ضرر على الغير

و بعدُ فقد نشرنا في مقتطف مارس سنة ١٩٠٤ مقالة في مثل هذا الموضوع لعالم محقق وهو السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق الآن فرأينا ان نعيد بعض فقراتها هنا . قال

« لحظ بعضهم هذه الآونة في مصر والشام بنتوى استصدرها احد سكان الترنسفال في الرخصة بلبس النعلين القبّعة مجاراةً لمواطنيهم من الافرنج وتفادياً من ان يتألمهم اذًى اذا ظلوا محتفظين بشعار رأسهم حتى كاد يوقن من لا يعرف الاسلام ان لبس القبّعات من الطامات وان ما تواطأ اهل هذا العصر على ستر رؤسهم بهِ من الصوف او الفرو او القش او الحرير او القطن على اختلاف اشكالهِ هو هو عماد الدين وأسُّ اساس اليقين . على ان الامر اقل مما توهموهُ وأكبروهُ يناقضهُ ما ورد في الحديث الصحيح من ان الشارع الاعظم قال كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة. وقال ابن عباس كلّ ما شئت والبس ما شئت ما خطئتك اثنتان سرف او مخيلة

« وقد ثبت انهُ عليهِ الصلاة والسلام لبس الجبة الرومية مع انها من لباس النصارى واكتسى الطيلسان الكسروي وهو لبوس مجوس الترس . وكذلك الصحابة لم يتحرجوا من لبس اهل البلاد التي افتتحوها نصارى كان اهلها ام مجوساً . وصحّ ان الناس نساءً ورجالاً لبسوا البرانس اول الفتح من غير تكبير مع انها من لبوس اهل النصرانية . وقد سئل مالك عن البرنس وكان من لباس الرهبان فقال لا بأس بهِ. قيل لهُ فانهُ من لبوس النصارى قال كان يلبس ههنا . وقال عبدالله بن ابي بكر ما كان احد من القراء الاّ لهُ برنس رواهُ بن عجر . وجاء في سفر السعادة للفيروزابادي انهُ صلى الله عليهِ وسلم لبس السراويل ولبس العمامة بغير قلنسوة ومع القلنسوة بغير العمامة وكان يجعل العذبة بين كتفيهِ في اكثر الاحوال . قال وكان يلبس الثوب المعلم والثوب الساذج والثوب الاسود والفرو المعلم على اطرافهِ بالسندس وكان لهُ جبة خسروانية مقرّحة عليها شعف من الديباج مخيطة واما الطيلسان فانهُ كان يلبسهُ حال الحرّ كما في اليوم الذي امر فيهِ بالهجرة فانهُ جاء في نصف النهار الى بيت ابي بكر وهو مطيلس واما

حديث انس كان يكثر القناع يعني يلبس الطيلسان كثيراً فحملهُ بعضهم على اوقات الضرورة وفي السفر

« ويروى ان ابا يوسف من اصحاب ابي حنيفة ارتأى تخصيص العلماء بزيّ خاص في الملبس ليُعرفوا فيطاعوا وتكون كلمتهم العليا اينما حلوا فتباعد على هذا الرأي بعضهم واراد ان يبرّر هذا التجوز ويجعل لهُ مأخذاً من الدين . قال محمد صديق حسن خان في حسن الاسوة في تفسير قوله تعالى « يا أيها النبيّ قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنين من جلابيبهن ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين » : واستنبط بعض اهل العلم من هذه الآية ان ما يفعلهُ علماء هذا الزمان في ملابسهم من سمة الاكمام والعمة ولبس الطيلسان حسنٌ وان لم يفعلهُ السلف لان فيهِ تمييزاً لهم وبذلك يعرفون فيلتفت الى فتاواهم واقوالهم . قال السبكي ومنهُ يعلم ان تمييز الاشراف بعلامة امر مشروع ايضاً انتهى

« واقول ما ايرد هذا الاستنباط وما ابعدهُ وما اقلّ نفعهُ وجدواهُ لا سيما بعد ما ورد في السنة المطهرة من النهي عن الاسراف في اللباس واطالتهِ وقد منع من ذلك سلف الامة وائمتها فاين هذا من ذاك وانما هو بدعة قبيحة شنيعة مردودة على صاحبها احدثها علماء السوء ومشايخ الدنيا ومن هنا قال علي القاري في معرض الذم لاهل مكة لهم عمائم كالاباريج وكمائم كالاخراج . وما ذكرهُ من ان زيّ العلماء والاشراف في هذا الزمان سنة ردّهُ ابن الحاج في المدخل بانهُ مخالف لزيهم في زمن النبي وزمن الخلفاء الراشدين و بعدهم من خير القرون فان قيل انهم بهِ يعرفون قيل انهم لو بقوا على الزيّ الاول لعرفوا بهِ ايضاً لمخالفتهِ لما عليهِ غيرهم الآن اه

« وإنك لترى المغربي اليوم يلبس من الثياب ما لا عهد للمصري بهِ وهذا من الازياء الخاصة ما بين لباس العراقي والشامي . وللفارسي والطاغستاني ازياء يختلف بعضها عن بعض على قرب الجوار وكذلك البلوخستاني والافغاني والصيني والهندي والبخاري والجاوي واليماني والزنجباري والسوداني والصومالي فلكل من هؤلاء الاجناس زيّ خاص يروق وسمهم وابدانهم فمن يرنس الى عمامة خضراء او بيضاء الى طربوش اسود او احمر الى حتال وكوفية الى لبادة وقبعة قش او صوف الى قلنسوة وعرقية وكلها تدور على وقاية الرأس من لافح الحر ونافح البرد

« وقد يختلف هذا الزي في القطر الواحد نفسهِ والبلد الواحد ولا يُعلّل ذلك الا بتشتت الاهواء واختلاف التربية والمنشآت خصوصاً في اهل قطر قضي عليهِ ان يكون مزيجاً من

اجيال الناس وعناصر بني آدم. حتى ظن مرة احد سياح الافرنج وهو يجول في شوارع دمشق وقد رأى اختلاف الناس في ازيائهم وهندامهم وشاهد انواع الالبسة والاكسية ان عند القوم مرفقاً (كرتقال) ليس لهُ كلٌّ ما يغشّ بهِ صاحبهُ لتقلب سحنتهُ وسيمتهُ لما رأى من وجه الشبه بين سكان تلك الحاضرة واهل بلاده في اكتساء بعض ابنائها اكسية غريبة للاستضحاك والمزاح في ايام معلومة من السنة

« سرى داء الازياء في اهل هذه البلاد خصوصاً المسلمين منهم فكان لباسهم مدة ثلاثة عشر قرناً وربع قرن تابعاً لفواعل الزمن وعوامل الحكام والاعاظم . ومن العادة ان يتشبه المغلوب بشعار الغالب ومن العادة ان يسنّ عليّة الناس العادات ويتشبّه بهم سائر طبقات القوم اذ يعتقدون الحسن والمصلحة فيما يصدر عن الكبير و يزعمون الخير في تقليده. وقد عقد ابن خلدون فصلاً في ان المغلوب مولع ابداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيهِ ونحلتهِ وسائر احوالهِ وعوائدهِ فيما قالهُ فيهِ « وانظر الى كل قطر من الاقطار كيف يغلب على اهله زيّ الحامية وجند السلطان في الاكثر لانهم الغالبون لهم حتى انهُ اذا كانت امة تجاور اخرى ولها الغلب عليها فيسري اليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير كما هو في الاندلس لهذا العهد من امم الجلالقة فانك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم واحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت

« لا جرم ان تغيير الازياء جرى على ما اقتضتهُ حالة المجتمع والسياسة والذوق الخاص بل تصرف على قاعدة بقاء الانسب وارتقاء الازمان . فان المنصور لما رأى الحاجة ماسة الى الاتحاد في لباس الرأس وكانت بدأت الدنية تدبُّ في اعصاب أمتهِ ودولتهِ الزم الرعية على ما روى الذهبي بلبس القلانس الدنّية مشبهة بالدن في طول شبرين تعمل من ورق على قصب وتغشى بالسواد قريبة الشبه من الشربوش . قال ابن الاثير وسنة ١٥٣ اخذ المنصور الناس بتلبيس القلانس الطوال المفرطة الطول فقال ابو دلامة

وكنا نرجي من إمام زيادة فزاد الامام المصطفى في القلانس
نراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جُلِّلت بالاطالس

« ولما عزم السلطان محمود العثماني على استبدال البسة الجند والعمال باللباس الاوربي والاستعاضة عن العمائم الحمراء والقواويق بالطرابيش استصدر فتوى من باب المشيخة الاسلامية

«وبعد فان تغيير العادات من شاق الاعمال لا يعمل فيها الا الأسوة والقدوة وحبهُ الزينة فلا تؤثر فيها القوانين الدينية ان وجدت ولا المدنية ان وضعت . قال منتسكيو في كتابهِ روح الشرائع اذا اراد الحاكم تغيير عادات امة وطبائعها يجب ان يكون ذلك باستبدالها بغيرها لا بقوة القوانين لان القوانين من وضع الحاكم وخاصة بهِ اما الاخلاق والعادات فهي من وضع الامة عامة . وضع بطرس الاكبر احد اعاظم قياصرة الروس قانوناً قضى بهِ على امتهِ ان يحلقوا لحاهم ويلبسوا ثياباً قصيرة كالاوربيين فاقام الجند تكمن في الطرق لتقبض على من خالف هذه الاوامر وتقصر الثياب الطويلة الى قبيل الركبة . قال مونتسكيو وتلك طريقة مجحفة لانهُ لم يكن من حاجة لهذا الملك ان يضع قانوناً توصلاً الى هذا التغيير بل كان يأتي لهُ الاكتفاء بفعلهِ هو بنفسهِ ليتخذهُ الناس مثالاً » انتهى

محمد كردعلي

***

يرى القارئ فيما تقدم كما كنا نشير الى ما فعلتهُ حكومة الجمهورية التركية من اجبارها الشعب التركي على لبس الزي الاوربي حتى في لباس الراس وما فعلتهُ الحكومة المصرية من اجبارها طلبة دار العلوم على عدم تغيير اللباس البلدي لباس المشايخ . اما الحكومة التركية فجرت مجرى بطرس الاكبر وربما كان الاجدر بها ان تفعل كما فعل السلطان محمود ومحمد علي باشا وخلفاؤهُ اي ان تقتبس الازياء الاوربية مبتدئة بالجند ورجال الحكومة وتجعل ذلك من قبيل الامتياز فيتبعها الشعب رويداً رويداً . واما الحكومة المصرية او وزارة المعارف فلها ان تسن القانون الذي تختارهُ للبس الطلبة وعلى الطلبة ان لا يخالفوا قانونها ما داموا في مدارسها وما دامت اكثر نفقات التعليم من الحكومة لا من الطلبة . ولكن لا يحسن بالحكومة ان تشترط على الطلبة الاحتفاظ بالقديم اذا كان الاحتفاظ بهِ يمنع نفعاً او لا يدرأ ضرراً كما لا يحسن بها ان تجبرهم على الاكتفاء بالآراء القديمة في الجغرافية والفلك والكيمياء والطب بل يجب عليها ان تعلمهم احدث ما وصلت اليهِ فروع العلم وتخرجهم فيها يؤهلهم لمسابقة امثالهم من الاوربيين وغيرهم من طلبة المدارس الاخرى . ولا يخفى ان ملك البلاد ووزراءهُ ورجال حكومتهِ وجمهوراً كبيراً من الاعيان رأوا من المصلحة ان يبدلوا اللباس الوطني باللباس الاوربي فهل من الحكمة ان يسن قانون يمنع الاقتداء بهم ولاسيما اذا لم يكن في ذلك اسراف ولا خيلاء